زكى نجيب محمود
ما الذى تغير... النبرة أم الفكرة ؟

– حين يصير الكاتب – أى كاتب – مقروءاً على نطاق واسع، ومؤثراً في أُمتنا إلى حد كبير، وحين يكون له كثرة كاثرة من الأتباع والتلاميذ الذين يروجون لأفكاره، فإن تقويم هذه الأفكار يصبح واجباً، لبيان السليم منها وتمييزه من السقيم، خصوصاً فيما يتصل بالمسائل الثقافية الكبرى. وحين يقرر الكاتب نفسه أن ما تغير وتطور في فكره إنما هو "النبرة دون الأهداف"، ويؤكد ذلك، رداً على من توهم أنه عانى تطوراً جذرياً في فكره، وعلى الرغم من ذلك يصر البعض على نقيض ما قرره الكاتب نفسه، حتى لقد رحب به البعض ككاتب و مفكر إسلامى، بعد أن كان زعيماً للعلمانيين ورائداً للعلمانية، وحين يصل الأمر بهذا البعض إلى أن يرفض نشر كلمة تشير إلى جهود ذلك الكاتب في مجالات التغريب والإحلال الثقافي، فإن المسألة تطرح نفسها طلباً للمراجعة، ووضعاً للأمور في نصابها، استناداً إلى مؤلفات الكاتب الأخيرة على وجه الخصوص. وهذا هو ما تطمح إليه هذه الدراسة.

– أما الكاتب الذى أعنيه فهو الدكتور زكى نجيب محمود، وقد كان مشهوراً بموقف علمانى، تغريبى، في قضايا التجديد والتحديث، أدى به إلى رفض تراثنا العربى الإسلامى وثقافتنا العربية الإسلامية، حتى قال إنها: "خليقة بأن يقذف بها في النار"، وحين خفف هذا الحكم قال: "إنها مادة للتسلية في ساعات الفراغ".(١) قال هذا في مرحلة النضج، أى بعد التطور الذى يكثر الحديث عنه دون تمحيص!

– والرجل نفسه يتحدث عن تطور فكره تجاه قضايا التجديد بعد عام ١٩٧٠ فيقول في أسف واستنكار "إن كبار الكتاب في مصر في النصف الأول من هذا القرن العشرين، كانوا يسرفون بالتباهى بثقافة الغرب: "مما أدى بنا يومئذ إلى العيش في

---

(١) انظر كتابه تجديد الفكر العربى؛ ط ٥ ص ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٤١.

مناخ كاد المواطن فيه يخفي مصريته وعروبته وإسلامه حتى لا يتهم بالجلافة والتخلف. ولا اظن أن احداً منا قد نجا من تلك التبعية العمياء القاتلة". (والحق أن كثيرين نجوا من تلك السقطة، وكان الإسلام هو طوق النجاة). ويعترف الدكتور زكى نجيب محمود بانه كان واحداً من أولئك المتغربين، **فيقول: "ولقد كنت لفترة طويلة واحداً من أولئك الذين ضلوا سبيل الحق في هذا الصدد، فبالغت كما بالغوا حتى أراد لى الله رؤية أهدى".**(١)

– لقد حدث تطور إذن، ولكن المؤلف بهذا الكلام العام لا يحدد مدى تخليه عن الاتجاه التغريبى (الذى وصفه بانه اتجاه الذين ضلوا سبيل الحق) ولا مدى التبعية التى عاناها، ولا يحدد طبيعة "الرؤية الأهدى" التى أرادها الله له. كذلك لم يحدد للناس المؤلفات القديمة التى حملت إليهم ذلك الضلال، فثمة مؤلفات عديدة كتبت في تواريخ مختلفة، قبل سنة ١٩٧٠ تاريخ الهداية إلى سبيل الحق، وقد قرر مثل هذا الكلام الذى اقتبسناه عنه تواً لكنه لم يحدد الجرعة التى يجوز اقتباسها من ثقافة الغرب، ولا المعيار الذى يبين ما يجوز اقتباسه وما لا يجوز اقتباسه، وكذلك لم يحدد موقفه من الأصالة، أى من ثقافتنا العربية الإسلامية، وخصوصاً جوهر هذه الثقافة المتمثل في الإسلام وكتابه وسنة رسوله ﷺ (وسوف نعرض لهذا الموقف إن شاء الله).

– إنه يوضح موقفه الأول من التغريب، لكنه لا يوضح موقفه الأخير، وسيكون علينا أن نجمع أقواله لتحديد ذلك الموقف، فهو يحسم موقفه الأول بقوله: إنه على امتداد عشرين سنة من عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٧٠ "لم أكن في تلك الأعوام أفرق بين ما يجوز نقله عن الغرب وثقافته وما لا يجوز، فكل ما عندهم واجب النقل إلينا، ما دمنا في حاجة إلى نتائجه. **وأسرفت في هذه الدعوة حتى تمنيت أن نأكل كما يأكلون، ونكتب من الشمال إلى اليمين كما يكتبون. وأن نرتدى من الثياب ما يرتدون".**(٢) وهذا هو التغريب الشامل، أى إحلال ثقافة الغرب محل الثقافة العربية الإسلامية. ومن الواضح أنه تأثر بالدكتور طه حسين في كتابه

---

(١) انظر كتابه: قيم من التراث؛ ط سنة ١٩٨٤ ص١٣٥.

(٢) قصة عقل؛ ص٧٣.

"مستقبل الثقافة في مصر"، وبالمناخ التغريبى الذى كان سائداً في تلك الفترة في الجامعة المصرية على وجه الخصوص والذى كان يلقى مقاومة باسلة قوية من الدعاة والكتاب الإسلاميين.

صعـوبات :

ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا: إن كلام الدكتور زكى نجيب محمود عن تفكيره قبل عام ١٩٧٠ **يسوغ لنا القول إن مؤلفاته قبل ذلك العام قد نُسخت، ولم تعد لها قيمة، فهى ضلال ثقافي في نظره هو نفسه**، وربما لم تعد لها قيمة إلا كشاهد على مدى التطور من الضلال إلى الرؤية الأهدى وإلى سبيل الحق، وسوف يكون علينا أن نقرأ مؤلفاته المتأخرة لنعرف نهاية المطاف في تطوره الفكرى، وهل صار حقاً كاتباً إسلامياً أم لا؟ وهل الذى تغير هو "النبرة" فحسب أم أن التغير لحق الفكرة أيضاً؟ وإلى أى مدى؟ وفي أى المسائل؟

ولقد واجهت بعض الصعوبات في تحديد تطوره الفكرى لأنه يعمد إلى التعتيم أحياناً، حين يتناول المسائل الخطيرة الحساسة، وقد عبر غير مرة عن ضيقه بالرأى العام الإسلامى ووصفه بأنه "وثن"! وذلك بسبب رفض الرأى العام الإسلامى المساس بتلك المسائل، من هنا وجدناه يراوغ ولا يحسم القول في قضايا العقيدة والشريعة، وقد مكنت له لغته الفصيحة الرشيقة من توصيل أفكاره المنافية للإسلام في كثير من الأحيان، دون إثارة للرأى العام، وحين كان يقترب من الوضوح، كان يصطدم بالنخبة الإسلامية وبالجماهير المسلمة، وهذا ما حدث غير مرة وأغضبه أشد الغضب.

وقد كان من الضرورى أن أنتخب لهذه الدراسة الأولية بعض المسائل ذات الأهمية، لأنه ليس بوسعنا دراسة المشكلات التى أثارها الدكتور زكى نجيب محمود في كل مؤلفاته.

* * *

مصدر ثقافتنا وجوهرها

تكلم الفلاسفة كثيراً عن الروح والمادة. وانقسموا واختلفوا. فقال بعضهم: إن مصدر الوجود روحي؛ أى أن خالق الموجودات ذو طبيعة روحية، لا مادية. وأما الموجودات المخلوقة فهى مادية وروحية. وذهب آخرون عكس هذا المذهب فزعموا أن المادة هى أصل الموجودات ومصدرها؛ ومن المادة خرجت كل القوى والظواهر التى نسميها روحية. ولهذه المذاهب تفاصيل واسعة يعرفها أهل الاختصاص.

والذى يهمنا هنا هو مذهبهم المادى في مصدر الثقافة وجوهرها. إن المادة، أو طين الأرض، أو البيئة، هى التى تفرز الثقافة. **مثلاً عند الدكتور زكى نجيب محمود أن مصدر ثقافتنا العربية الإسلامية هو: الصحراء. وكل خصائص ثقافتنا ترجع إلى الصحراء.** فالأصل الثلاثى لمفردات اللغة العربية هو الصحراء، هكذا يقرر دون أن يقدم تفسيراً! والشعر العربى صحراوى، والفنون العربية صحراوية. وديانات التوحيد صحراوية! ولغات المنطقة العربية كلها، وثقافاتها، وأديانها القديمة، كلها صحراوية. وعدم وجود فن مسرحى مرجعه إلى الصحراء.(١) فهو لا يميز بين الشعر الذى يتأثر بالبيئة، والدين المُنزَّل من السماء!

ونمضى مع نظريته هذه قُدُماً، فنجده يزعم أن الصحراء هى التى أوحت إلى العربى فكرته عن طبيعة الكون والإنسان و"عما وراء الكون".

– وفكرة اللانهائية عند العربى مصدرها الصحراء، فإن: "أول ما توحى به الصحراء لساكنيها هو فكرة اللانهائية".(٢)

– ولأن مصر عنده بلد صحراوى – هكذا يقرر! – فقد قبلت الثقافة العربية بيسر، وتفاعلت معها: "ولكنه تفاعل فيه طغت البداوة على الحضارة أحياناً، فتهجم

---

(١) انظر كتابه: عربى بين ثقافتين؛ ص٥٢، ٥٤، ٦٣، ٦٦، ٦٧.

(٢) نفسه؛ ص٤٤.

الثقافة الأولى على ظهور جيادها (يقصد الفتح الإسلامى !) وفي ظلال سيوفها، لتغزو الثقافة الثانية في حصونها وقلاعها" ...." فلما غزت ثقافة البداوة بمجموعة قيمها، ثقافة مصر بمجموعة قيمها، حدث مركب خليط هو الذى نحياه اليوم".(١)

وقبل أن نُزيِّفَ مَزاعمه هذه، نود أن نلفت الأنظار إلى أن نظريته – أى نظرية صحراوية الثقافة العربية الإسلامية – قد جاءت في كتاب له صدرت أولى طبعاته عام ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م، أى بعد كل التطورات التى مر بها فكره، وبعد كتابات عديدة له حول الأصالة والمعاصرة ومحاولاته للتوفيق بينهما. وهذا يثبت أن نظريته المادية بطبيعتها، لم تتطور ولم تتغير، باستثناء "النبرة" في التعبير، كما قرر هو نفسه. وهاهو يقول في آخر كتاب ألفه، أعنى "حصاد السنين" – ص٤١٠– عن شخصية العربى ومقوماتها، إنها شخصية: "تؤمن بأن هذا الواقع الذى نقضى حياتنا في ربوعه نراه بالبصر ونلمسه بالحواس، لابد أن يكون له "وراء"؛ فهذه حقيقة توحى إليه بها لانهائية الصحراء التى هى بيته الكبير، كما تؤكدها له رسالات السماء فيما نزل من ديانات".

● وأول ما نأخذه على هذه النظرية أنها تنتسب إلى الفلسفة المادية التى تجعل المادة خالقة للعقل وللشعور، وللثقافة بكل مضامينها، وللدين بعقيدته وشرائعه وأخلاقياته. ولكن كيف يخلق الجماد حياة وفكراً وشعوراً؟! هذا هو السؤال الذى وقف كالجبل في وجه الماديين؛ ولم يستطع أحدهم أن يجيب عنه. لذلك سقطت المادية وخصوصاً الوضعية المنطقية التى اعتنقها الدكتور زكى نجيب محمود وانحدرت إلى أدنى الدرجات في نظر مؤرخى الفلسفة المعاصرين.

وثانى أخطاء الرجل زعمه بأن العرب عرفوا فكرة اللانهائية بإيحاء الصحراء. والحق أن العرب لم يعرفوا هذه الفكرة مطلقاً لأن الصحراء معروفة لهم بحدودها؛ وقد اجتازوها آلاف المرات في رحلاتهم التجارية. ولا يوجد أى دليل على معرفتهم بهذه الفكرة الفلسفية. أما الثابت في تاريخ الفكر الفلسفي فهو أن الفيلسوف اليونانى القديم المعروف والمشهور أنكسيمندريس (٦١٠–٥٤٩ ق.م) الذى عاش في "مالطة"

---

(١) انظر كتابه: قصة عقل؛ ص٢٦٦، ٢٦٧ .

– وهى منطقة غير صحراوية من بلاد اليونان – هو الذى قال بهذه الفكرة لتفسير وجود الموجودات.(١)

وقد عرف العرب دين إبراهيم عليه السلام، وعرفوا اليهودية والمسيحية، في صيغ محرفة، وآمنوا بالله؛ لكنهم أشركوا به، فعبدوا الأصنام والأوثان، فلم تكن الصحراء هى مصدر معرفتهم بالله، وإنما هو دين إبراهيم، بالإضافة إلى الفطرة العقلية التى تقود الأمم، في السهل والساحل والجبل، إلى الإيمان بأن وراء المخلوقات خالقاً، ووراء النظام مُدبّراً حكيماً.

والخطأ الثالث هو تعميمها التعسفي للبيئة الصحراوية في الوطن العربى؛ ونحن نعلم أن مصر ليست صحراوية. وبعض المصريين لم ير الصحراء في حياته! وقبول مصر للثقافة الإسلامية يرجع إلى العناصر الإيجابية القوية في عقيدة التوحيد وشريعة العدل وأخلاق الإيثار. والتوحيد والعدل والإيثار في ثقافتنا الإسلامية تضعها في القمة من الرقى والتحضر، وتنفي عنها وصمة البداوة التى ألصقها بها زوراً وبهتاناً، وبخاصة إذا تذكرنا أن الإسلام لم يعرف التفرقة العرقية أو الثقافية في تطبيق العدل والإيثار. وأما الثقافة المنحطة حقًّا، فهى تلك التى لا تعرف العدل إلا بين أهلها فحسب، ثم تقتل وتظلم وتنهب من غير ضابط، إذا خرجت من ديارها! وتلك هى الثقافة التى حاول زكى نجيب محمود إقناع أمتنا باستيرادها وأبدى إعجابه الشديد بها، في كل مناسبة، وبدون مناسبة.

ومن المؤسف أن قوى التغريب، و زكى نجيب محمود أحد أقطابها، قد نجحت في تسميم ثقافتنا العربية الإسلامية بعناصر مادية، ولا أخلاقية، عبر مائتى عام من الفتح الاستعمارى لمصر، فصارت ثقافتنا خليطاً، أو "بغلاً" ثقافياً، من عناصر إسلامية وعربية وشوائب مادية أُوربية. وهذا هو الذى نحياه اليوم، ويسبب العقم، والصدام والتهادم، وسائر الظواهر السلبية في حياتنا الفكرية و الاجتماعية.

والخطأ الرابع يتمثل في قوله: إن رسالات السماء أكدت للعربى ما أملته عليه البيئة الصحراوية المادية. ففيم كان القتال بين المسلمين والمشركين إذن؟! والحق هو أن الفطرة العقلية لدى البشر، في الصحارى والسهول ، تقودهم إلى الإيمان بالخالق، وإن

---

(١) يوسف كرم؛ تاريخ الفلسفة اليونانية؛ مكتبة النهضة المصرية؛ ط٥ سنة ١٩٦٦م – ص١٤ .

لم تسعفهم في معرفة صفاته، ولا أوامره ونواهيه. وجاءت الرسالات السماوية لتؤكد الصواب وتنفي الخطأ، في الفكر والعمل وفي العقيدة والشريعة. وهناك بدهيات عرفها البشر في كل البيئات، كوجود الخالق، والعدل والوفاء بالعهد، كما عرفوا أن واحداً وواحداً يساويان اثنين. فهذه أكدتها الرسالات السماوية. لكن أكواماً من الأخطاء كانت راسخة كالجبال، فنسفها الإسلام نسفاً. فمن الخطأ إذن أن يقول الدكتور زكي نجيب محمود: إن الصحراء أوحت إلى العربى بأن هناك "وراء" لهذا الواقع، وإن رسالات السماء قد أكدت ذلك؛ فكلامه يوحي بأن الصحراء هي أصل الدين؛ وأن الرسالات السماوية أكدت ما أوحت به الصحراء. وتلك كما قلنا هي النظرية المادية الصحراوية في تفسير الثقافة؛ وهي نظرية خاطئة جملة وتفصيلاً.

والخطأ الخامس زعمه أن الصحراء هي التي أوحت إلى العربى بأن القيم الأخلاقية ثابتة.(١) والحق أن العربى الجاهلي لم يعتقد أبداً بثبات القيم، فكانت القيم عنده نسبية؛ ومرجع القيمة عند الجاهلي هو مصلحة القبيلة. والمصالح كما نعلم مُتغيرة مُتقلبة، وعلى هذا كان الحرام اليوم عند العربى حلالا غداً! والحلال بالأمس حراماً اليوم! ولذلك استباحوا الجرح والقتل والسلب والنهب؛ وتلك جرائم إذا اقترفها العربى ضد قبيلته، أو حلفائها، وبطولات إذا اقترفها ضد قبيلة معادية. وكلنا يعرف المبدأ الجاهلي القائل: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً!" إنه يمثل نسبية القيم وتغيرها ويعبر عن عدم ثباتها خير تعبير. وقد نفاه الإسلام، وأكد ثبات القيم ثباتاً مُطلقاً.

– ومن المعروف أن ثبات القيم كان هو مذهب سقراط في مواجهة السوفسطائية القائلين بنسبية القيم. وكانت البيئة لكلا الطرفين واحدة؛ ولم تكن صحراوية! وهذا يبين جسامة الخطأ الذى اقترفه الدكتور زكي نجيب محمود. والآن في أوربا وأمريكا، يوجد القائلون بنسبية القيم والقائلون بثبات القيم جنباً إلى جنب، لا أقول في البيئة الواحدة بل في الجامعة الواحدة، والقسم العلمي الواحد!!

● وهكذا تظهر أخطاؤه العديدة في نظريته المادية الصحراوية في تفسير الثقافة؛ وعبارته القائلة: إن رسالات السماء تؤكد ما أملته الصحراء، إنما هي "النبرة" الجديدة التي تغيرت. أما الفكرة أو النظرية الخاطئة فبقيت واستمرت معه، ولم يحدث قط أنه صرح بتبرئته منها. وهذه هي مؤلفاته المتأخرة تشهد بصحة ما أقول.

---

(١) عربى بين ثقافتين؛ ص٤٨ – ٥١.

الرسول و الرسالة

إذا كانت الثقافة العربية الإسلامية – دون تمييز بين جوهرها الدينى وغيره من العناصر –إبداعاً من طين الأرض أو رمال الفيافي، لا تنزيلاً من وحى السماء، فلابد أن يكون للدكتور زكى نجيب محمود (صاحب نظرية "صحراوية الثقافة العربية الإسلامية") موقفه من الرسول –الذى تلقى الوحى –والرسالة التى جاء بها. وهذا الموقف هو موضوع هذه السطور.

وصفه للرسول و الرسالة:

ونبدأ بوصفه للرسول والرسالة، فهو يصفهما وصفاً مراوغاً، تاركاً التحديد للقارئ. لأن ذكر اسم النبى ﷺ والقرآن الكريم بسوء يعرضه دون ريب لنقد الناقدين، وسخط الساخطين، الأمر الذى كان يشكو منه دائماً، ولا يستطيع مواجهته!

فهو يصف النبى ﷺ فيقول: "رجل قضى منذ زمن لكنه ترك وراءه شهرة وسمعة تملأ النفوس رهبة" (١). ويصف التراث العربى فيقول إنه: "صحف مكتوبة وبعضها الآخر مكسو بالجلال والرهبة بحكم أنه تراث هبط على الناس من أسلافهم الميامين". (٢) فمن ذا الذى قضى منذ زمن لكنه ترك وراءه شهرة تملأ النفوس رهبة؟ هل هو إنسان آخر غير الرسول ﷺ؟ هل هو شاعر أو فيلسوف أو حاكم ؟ ولماذا يخفي الاسم، إذا لم يكن هو النبى ﷺ؟! وما الصحف المكسوة بالجلال والرهبة تلك التى هبطت علينا من أسلافنا ؟ إن الصحف المكسوة بالرهبة والجلال هى القرآن الكريم وكتب السنة النبوية الشريفة. وعلى كل من يرفض هذا التفسير لكلامه أن يجيب عن سؤالين، هما: لماذا هذا التعتيم وتعمد إغفال الأسماء؟ ومن يا ترى يكون المقصود إن لم يكن الرسول والقرآن؟!

---

(١) تجديد الفكر العربى؛ ص٥٢ .

(٢) نفسه؛ ص٤٥ .

ولكى نُزيل أى شبهة تظل عالقة بأذهان البعض حول موقف الدكتور زكى نجيب محمود من النبى ﷺ والقرآن الكريم، نقدم بعض دفاعه عن العقل، ونبذه ما أسماه "المنوال الفكرى القديم"، ففي ذلك المزيد من الوضوح. فهو يقول: "والمنوال الفكرى القديم الذى أعنيه قوامه عناصر كثيرة لعل أهمها جميعاً الركون إلى "سُلطة" فكرية تُستمد منها الأسانيد. ومثل هذه السلطة الفكرية تتمثل عادة في نصوص بعينها محفوظة في الكتب. وبناءً على هذا الموقف تكون الفكرة التى يُقدمها رجل الفكر صواباً إذا هى اتسقت مع ما أقرته السلطة الفكرية في الكتب المحفوظة أو في الأقوال المأثورة، كما تكون الفكرة خطأ إذا جاءت مُخالفة لما أقرته تلك السلطة. ومن هنا اشتد سُلطان الماضى على الحاضر، وأصبح البُرهان الذى لا يُرد هو أن نسوق "الشواهد" من سجل الأقدمين، وانحصرت قوة الإبداع الفكرى في القدرة على إيجاد السند من القول الموروث[1].

فمن الواضح أن السلطة الفكرية التى يُعارضها الدكتور زكى نجيب محمود بهذه الكلمات هى سلطة الدين المتمثلة في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة. حقًا هو لا يُصرح ولا يحدد ويعتمد على الاكتفاء بأوصاف مُراوغة للرسول والرسالة، لكن القارئ المثقف يفهم أن المقصود هو القرآن والسنة؛ وتكفي عبارات مثل "نصوص بعينها محفوظة في الكتب" و "الكتب المحفوظة". و "الأقوال المأثورة"؛ وألفاظ مثل: "الشواهد" و "السند"؛ فهذه الألفاظ و العبارات، والفقرة مُجتمعة، تنطق بأن الرجل يتحدث عن الكتاب والسنة؛ وبأن السلطة الفكرية التى يرفضها هى سُلطة الإسلام المتمثلة في نصوصهما؛ وبأن لفظ "الماضى" لا يقصد به هنا سوى الإسلام؛ وبأن المنوال الفكرى الذى يرفضه هو منهج الفكر الإسلامى الذى يستند إلى الكتاب والسنة، ولا يصح فيه قول يتعارض مع نصوصهما.

ولقد يذهب البعض إلى تفسير آخر؛ غير أنه لابد أن يضطر إلى التعسف والالتواء، والتصادم مع الخط الفكرى للدكتور زكى نجيب محمود نفسه في مسائل أخرى عديدة؛ وسنرى أن موقفه من المسائل الفكرية والثقافية الأساسية مُتسق، وأنه يؤيد ما ذهبْت إليه هنا من تفسير لموقفه من الرسول والرسالة.

---

(١) قصة عقل؛ ص١٢٤.

"روح النصوص" و"عبيرها"!

– لكن ثمة تطوراً قد حدث وهو تطور في "النبرة" فحسب، كما قال هو نفسه.[1] فهناك عبارات كثيرة متناثرة في كتبه الأخيرة توهم القراء بأنه يقبل الاحتكام إلى الكتاب والسنة. لكنه في الحقيقة قد أوضح أن ما يقبله منهما هو "عبيرهما" فحسب!! أو "روحهما"!! وبالإضافة إلى هذا، هو يقبل "عبير" بعض النصوص فحسب، فقد أوضح بجلاء رفضه بعض أحكام الكتاب والسنة؛ فهو "اجتزائي"؛ وهذا الموقف يباعد بينه وبين الموقف الإسلامي الصحيح المشروع الذي يسلم تسليماً كاملاً بالسمع والطاعة لله ورسوله، وبالقبول الكامل لنصوص القرآن والسنة دون جحد أو اجتزاء أو انتقاء.

● وفي حسباني أن موقفه الأول الأكثر وضوحاً، أفضل من الموقف الأخير الذي طور فيه "نبرته" فحسب، مع بقاء الفكر الوضعي، المادي، قابعاً وراءها! ولقد انخدع بعض الكتاب بهذه "النبرة" حتى أدخلوه ضمن المفكرين الإسلاميين، وفرحوا بذلك ورحبوا به!

* * *

(١) حصاد السنين؛ ص ٣٤٠.

هدم الأصيل وجلب الغريب

القرآن الكريم والسنة النبوية هما عماد الأصالة في ثقافتنا وجوهرها. وإفساح المجال لجلب الثقافة الغربية وإحلالها محلهما لإنجاز مشروعات التغريب يتطلب هدم هذا العماد وتحطيم ذلك الجوهر. وقد أثبتت تجارب النصف الأول من القرن العشرين أن الهدم الصريح والتحطيم المباشر المكشوف، يستفزان قوى الأمة المسلمة على مستوى النخبة وعلى مستوى الجمهور العام. ولهذا تغيرت مناهج الهدم والتحطيم، فاستخدم اصطلاح "الماضى" بدلاً من "الإسلام"!

وبدلاً من الهجوم على الإسلام من خارجه، وتحت رايات معادية جرى الهدم من الداخل وبعد إعلان القبول به ورفع رايته!

إزالة العصمة عن الماضى!

من الركائز الأولى لإنجاح الإحلال الثقافي ما يسميه الدكتور زكى نجيب محمود: "إزالة العصمة عن الماضى"، والماضى في اصطلاحه هو الإسلام، فهو يقول: "وهاهنا نضع أصابعنا على ركيزة أولى لامحيص لنا عن قبولها إذا أردنا أن نتشرب روح عصرنا، وهى أن نزيل عن الماضى ما نتوهمه له من عصمة وكمال."(١) ومن الجلى أن العصمة و الكمال لا يوصف بهما شيء سوى الكتاب والسنة، فكل العلماء والفقهاء، بل كل الصحابة ﷺ بشر من البشر، ولم يدع أحد لهم عصمة ولا كمالاً باستثناء بعض الشيعة، فلا يظن ظان أن الرجل يقصد شيئاً آخر غير الكتاب و السنة؛ فإذا أزلنا العصمة والكمال عنهما (لا قدر الله) تفتحت كل الأبواب لنبذ ما يشاء العلمانيون من عقائد الإسلام وشرائعه وأخلاقياته، وإحلال البدائل الغربية محلها: الفكر المادى محل العقيدة والقوانين الوضعية محل الشريعة والأخلاقيات النفعية محل الأخلاقيات الإيثارية، والثقافة محل الثقافة والهوية محل الهوية، دون أن يثور أحد أو يُستفز. فما ينبذ في هذه الحالة إنما هو أشياء لا عصمة لها ولا كمال!

---

(١) قصة عقل؛ ص٢٤٩.

النسبية:

والترويج للفلسفة النسبية مدخل أساسى أو ركيزة أولى في منهج الإحلال الثقافي الشامل، فيجب إقناع الجماهير المسلمة بأن كل شيء يتغير بتأثير الأيام والليالى، لا فرق في ذلك بين عقائد الدين وشرائعه وبين حقائق العلم وقيم الأخلاق ووسائل النقل والرى! وقد تمسك الدكتور زكى نجيب محمود بهذه الفلسفة في مؤلفاته الأخيرة التى تعبر عن آخر تطورات فكره، وفي هذا يقرر بوضوح أن لا شيء ثابت مُطلقاً إلا الله: "لأن الثبات المطلق لا يتحقق إلا لمن هو فوق الزمن وتقلباته وقيوده - سبحانه وتعالى -. (١)

وفي ضوء هذه الفقرة يجب أن نفهم ما قد يبدو لنا مُخالفاً لفلسفته هذه. ففي عدة مواضع في كتبه نجده يتحدث عن "الثبات والإطلاق" وكأنه قد تخلى عن النسبية!

لكنها "النبرة" التى تغيرت، فالنسبية هى مذهبه، لكنه يُميز بين "أشياء سريعة التغير" و "أشياء بطيئة التغير"، والكل يتغير. وما هو بطيء التغير يسميه هو ثابتاً أو مُطلقاً، فيلتبس الفهم على القارئ ويظن أنه نبذ فلسفته الأثيرة! وقد انخدع بهذا بعض الكتاب الإسلاميين!!

من ذلك مثلاً أنه في أثناء وصفه لطبيعة العلم يقول: "إنه يُسقط عن الإنسان فرديته التى ينفرد بها كى نخلص إلى ما هو عام، مُطلق، يصدق في كل مكان وفي كل زمان". (٢) فإذا أخذنا هذا الكلام منعزلاً عن بقية أقواله، أخطأنا وتوهمنا أنه نبذ الفلسفة النسبية الجذرية.

إن النسبية فكرة ضرورية لتمهيد الأرض للمطالبة بنبذ "القديم" كله من الشرائع والعقائد، بالإضافة إلى الحقائق والقيم. ولكنها فكرة خاطئة، وقد ثبت زيفها في الفكر الفلسفي المعاصر، في أوربا وأمريكا نفسها. فإن أساس النسبية هو الخلط بين "**الحقائق**" وبين "**معرفة البشر بها**". فالمعرفة تتغير بتغير الزمان، لكن الحقائق ثابتة، مطلقة وكذلك العقائد والشرائع والقيم. فالحقيقة القائلة:

---

(١) حصاد السنين؛ ص٣٤٤.

(٢) نفسه؛ ص ١٧٩.

"إن الأرض تدور حول الشمس "ثابتة مطلقة، وإن لم يعرفها الناس في العصور القديمة. والعدالة الإسلامية التى تقرر "أن لكل إنسان ثمرة جهده وعليه تبعة أخطائه" قيمة تشريعية ثابتة مطلقة، وبدهية عقلية يستحيل تغيرها، سواء عرفها البشر وطبقوها أو جهلوها ولم يطبقوها. والدكتور زكى نجيب محمود كان مخطئاً ومتعسفاً حين رفضها بقوله: "بعضنا يريد أن يعيد" الماضى "ليكون هو الحاضر أيضاً، وكأن لم يكن هناك امتداد زمنى بيننا وبينه". [1] فالقيم المطلقة لا تخص الماضى ولا الحاضر ولا المستقبل، لأنها غير زمانية، ولذلك عرفها البشر - غالباً - في كل زمان ومكان. وكل محاولة لانتهاكها عن جهل أو عن عمد لابد أن تفضى إلى الفشل الذريع. وقد كانت الشيوعية ضرباً من التحدى لقيمة العدالة لأنها أصرت على إعطاء كل فرد على قدر حاجته، لا على قدر عمله! وكانت النتيجة الحتمية هى الانهيار المأساوى لعالم واسع شاسع هو المعسكر الشيوعى البائد!

● وعلى هذا أقول: إن محاولات هدم الإسلام استناداً إلى النسبية مصيرها الإخفاق الذريع بحول الله. لكن المسألة تحتاج إلى توعية أمتنا بهذه المداخل المضللة التى تتخذ "نبرة "مهادنة!

* * *

(١) حصاد السنين، ص٢٧٢ .

الدين والعقل والعاطفة

لعل من أخطر الأفكار التى اعتنقها الدكتور زكى نجيب محمود، وروّج لها في مؤلفاته، بما في ذلك الأخيرة منها، تلك التى تزعم أن مصادر المعرفة عند الإنسان العقل والعاطفة فحسب! وأن مصدر المعارف الدينية العاطفة لا العقل. وفي هذا يقول: "العلم عقل والدين وجدان (أى عاطفة)، لأنه إيمان يُصدق به من آمن به. والإيمان بالله الخالق المدبّر، الواحد الأحد، ليس عاطفة كالحب كما يزعم وليس وجداناً، بل هو نتيجة لتدبر العقل في العالم والوجود والإنسان، وفي نظام الكون المذهل الدقيق. فقد أملى العقل البشرى الإيمان بالخالق المدبر إملاء؛ لأنه يستحيل تفسير وجود الكون ونظامه دون التسليم بوجود الخالق الحكيم - جل جلاله -. ولذلك وُجدَت هذه العقيدة الدينية عند كل الأمم، وإن أخطأ بعضها في تصوره لهذا الإله العظيم. وكان من فضل الله تعالى على خلقه أن بعث رسله لتصحيح العقائد وتبليغ الشرائع، وهداية البشرية إلى الخير الذى يريده الخالق لها في الدنيا والآخرة.

وأخطأ الدكتور زكى نجيب محمود حين زعم أن الناس آمنوا بالإسلام دون أن يطلبوا حجة أو برهاناً ! فقد كان العرب يؤمنون بالله، لكنهم كانوا مشركين يعبدون أصناماً وأوثاناً، مع إيمانهم بالله. وهم لم يتركوا الشرك رغم تفاهته عقلاً، إلا بعد مجادلات طويلة، وعديدة، وعنيفة، سجل القرآن الكثير منها. ووقعت مجادلات مماثلة بين النبى ﷺ واليهود والنصارى، أوردها القرآن وكثير من الأحاديث والأخبار والآثار.

كان العرب ينكرون التوحيد،، فجادلهم القرآن جدالاً عقلياً لا وجدان فيه ولا عاطفة، فجاء على لسانهم في القرآن: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (سورة ص: ٥)

وقالت النصارى إن المسيح ابن الله وقالت اليهود عزير ابن الله، فقال القرآن الكريم: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩١).

وهذه حجة عقلية، لا عاطفية، تثبت صدق عقيدة التوحيد وتبطل التثليث والإثنية والشرك. و طالب القرآن المشركين بتقديم البرهان على صحة الشرك إن كان عندهم برهان وقال: ﴿ **وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** ﴾. (المؤمنون: ١١٧) وقال أيضاً: ﴿ **أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ** ﴾ (النمل: ٦٤) فهل كان النبى يطلب البرهان دون أن يقدم البرهان ؟!

واندلعت مجادلات عقلية عنيفة بين النبى ﷺ و أهل الكتاب، وأسلم قليل منهم وبقى معظمهم على دينه، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** ﴾ (آل عمران: ٦١) فكانت "المباهلة" بعد مجادلات طويلة ومضنية.

وقد ظلت القبائل العربية حوالى عشرين سنة تجادل في الإسلام، حتى فتح الله تعالى مكة، فاتخذوا من ذلك دليلاً على صدق الدعوة الإسلامية وترجيح التوحيد على الشرك. ولولا رسوخ الوثنية لما طال بهم العهد في مجادلات و محاورات لكى يعتنقوا التوحيد وينبذوا اللات و العزى!

وظلت المجادلات العقلية مندلعة عبر القرون بين المسلمين وغيرهم ممن فتحت بلادهم. والمؤلفات الفلسفية والدينية طافحة بهذه المجادلات. وحتى اليوم لا تزال المجادلات جارية. والذين أسلموا من زعماء الغرب ومفكريه لم يسلموا دون برهان كما زعم الدكتور زكى نجيب محمود. والمثقفون المسلمون الذين ورثوا الإسلام عن آبائهم أعادوا فحص عقيدتهم وقارنوها بالإلحاد المعاصر، واختارت الأغلبية الساحقة دين التوحيد، دين العقل ودين العلم، وأما غير المسلمين فقد فشى فيهم الإلحاد لعجز عقائدهم عن مواجهة البراهين العقلية والعلمية.

● **فهذه هى حقيقة مزاعم الدكتور زكى نجيب محمود عن مصادر المعرفة: إنها أخطاء مركبة. فإذا صادفك في كتبه ما قد يناقض هذه الحقائق، فاعلم أنها "النبرة" في التعبير، لا التغيير في التفكير!**

فكرة التطور

يقول الدكتور زكى نجيب محمود إن أهم أفكاره التى نقلها عن الغربيين وتحمس لها هى: "فكرة التطور"، ومن ثم فكرة "التغيير" وبالتالى فكرة "التقدم" **بمعنى أن يكون من مُسلماتنا الثقافية اعتقاد بأن الحاضر دائماً أفضل وأكمل من الماضى**" (١)

هذا هو رأيه الذى استقر عليه فى مرحلة النضج وعبر عنه فى آخر كتاب له وهو: "حصاد السنين".

ويبنى الدكتور زكى نجيب محمود على رأيه هذا موقفه من ثوابت الإسلام. فهو يرفض الاعتراف بأية ثوابت، فكل شىء متطور متقدم متغير، وإن كان التغير يُسرع فى أشياء ويبطئ فى أخرى فنظنها ثابتة. وعلى هذا يجب أن نفهم كل كلام يصدر عنه فى ضوء هذه الحقيقة. فإذا تحدث عن ثبات القيم أو الهوية أو الحقائق العلمية يجب أن نفهم أن ثباتها نسبى، فهى متغيرة متطورة، ولكن ببطء. وفى هذا يقول إنه: "حتى الثوابت من العناصر الثقافية التى تدوم أكثر مما تدوم المتغيرات من تلك العناصر عصراً بعد عصر، وأعنى "الثوابت" التى تتألف منها "الهوية" الوطنية أو القومية، أقول إنه حتى تلك "الثوابت" من عناصر الحياة الثقافية لشعب معين، لا ينبغى أن يكون لها من القداسة ما يمنعنا من تعديلها إذا وُجد أنها قد فقدت شيئاً من قدرتها على أن تهيئ لصاحبها فرصة الحفاظ على حياته قوية مزدهرة." (٢)

و"الثوابت" الأساسية التى تشكل الهوية هى "الدين، بشرائعه وقيمه الأخلاقية واللغة وآدابها. فالدين بعقائده وشرائعه و أخلاقياته نسبى متغير، متطور، ولكن ببطء. ولذلك تجد الرجل يدين الدعوة إلى التمسك بالإسلام، ويقول إن:

---

(١) حصاد السنين؛ ص ٤٤

(٢) عربى بين ثقافتين؛ ص ١٨٩، ٣٧٢، ٤٠٠.

"الرجوع إلى الماضى لالتقاط أهدافنا من تصورات الأمس هو بمثابة رفض صريح لفكرة "التقدم" التى هى من أبرز ما يميز الوجه الثقافى لعصرنا." (١)

وهو يتمسك بفكرة التقدم بكل قوة وعزم، ولذلك يرفض الغايات التى يحددها الإسلام للحياة البشرية والقيم التشريعية و الأخلاقية، و"الالتقاط من الأمس" يعنى – عنده – الاستناد إلى القرآن الكريم و السنة المطهرة.

وبناء على اعتقاده الراسخ بفكرة التقدم، أكد دائماً أن: "الحاضر أكمل وأفضل من الماضى." لكنه أمام النقد الذى واجهه دائماً، اضطر إلى تعديل رأيه، وميز بين مجال الدين ومجال العلم، وتساءل: "ماذا يمنع أن يكون السابقون فى أية عقيدة دينية أنقى عقيدة وأصفى رؤية و أخلص عبادة وأفضل سلوكاً من اللاحقين؟" (٢) ثم يعترف بأنه فى مجال الفن والأدب قد يكون القديم أصح وأكمل من الجديد: "وذلك لأن الأمر فيها مرهون بموهبة الفنان أو الأديب." (٣) وهنا لابد أن نذكر القارئ بأنه بحسب نظريته فى التطور لابد أن يكون الجديد أفضل وأكمل على المدى البعيد، فإن الحاضر: "هضم الماضى ثم أضاف جديداً تلو جديد مما أنتجته السنون، ومعنى ذلك ألا يكون "العصر الذهبى" وراء ظهورنا، بل يكون موضعه الصحيح هو المستقبل". ثم يضيف قائلاً: "ومعنى هذا وجوب الاهتمام "بالمصير"، ولا ينفى ذلك الاهتمام أن تجىء قوائمه مستندة إلى تراثنا الذى تركه لنا السلف، على ألاّ يكون فى حياتنا الحاضرة بمثابة النهاية التى نقف عندها، بل يكون بين أيدينا نقطة ابتداء نجاوزها إلى مستلزمات حاضر حىّ ومستقبل مأمول." (٤)

والتراث المقصود هو الذى تركه السلف وهو الوحى الإلهى أى القرآن و السنة.

وهذه إيماءة سلبية منكرة للحديث الشريف القائل: "خير القرون قرنى" وهى تتعارض مع تمييزه السالف بين مجالات العلم والفن والدين وإغفال الوحى. **وهذا هو منهجه، أعنى التناقضات التى تجيز للباحث أن يقول إننا بإزاء رجلين أو كاتبين متضادين أو زكيين نجيبين محمودين !** وبصفة عامة هو لا يعترف بأن الوحى هو سبب خيرية القرن النبوى أو تفوق "الماضى" على الحاضر!

---

(١) حصاد السنين؛ ص ٤٠
(٢) نفسه؛ ص ١٣٤.
(٣) رؤية إسلامية؛ ص٤١.
(٤) نفسه؛ ص ٧.

ويخلط الدكتور زكى نجيب محمود بين "**الحقائق العلمية**" و"**المعارف العلمية**". فيقرر أن: "الحقائق العلمية "نسبية مرهونة بظروف زمانها وما قد وصل إليه من أجهزة متطورة."[١] فالحقائق العلمية على نقيض قوله ثابتة مطلقة، لكن معارف البشر بها هى المتغيرة المتباينة، ولا أقول نسبية. فالأرض كروية، وهى تدور حول الشمس منذ أن خلق الله الخلق؛ هذه حقيقة ثابتة مطلقة، لكن معرفة البشر بها كانت خاطئة، ثم تقدمت واقتربت من الحقيقة المطلقة. لكن النفور من الثوابت سوّغ للكاتب الكبير هذا الخلط الفظيع.

وفى حديثه عن القيم الأخلاقية نواجه التناقضات أيضاً. فهو يقرر أن: "معظم المبادئ الأخلاقية جاءت إلى الناس وحياً مع رسالات السماء، وليست من صنع البشر." [٢]

وهو يصنف مبادئ الأخلاق صنفين:

١- الأول مجموعة جاءت مع الوحى الدينى، ولذلك هى جزء من الدين، وهى ثابتة؛ وهى ضمانة ضد التحلل و الدمار. وهو لا يحدد لنا أى مبدأ، ولو كمثال، ولا يصف لنا هذه المبادئ أو يميزها.

٢- والثانى مجموعة أفرزتها خبرة الإنسان فى حياته العملية؛ فمصدرها المعرفة البشرية. وهى قابلة للتغيير، وهى التى تُيسّر للعرب اللحاق بموكب العصر. [٣] وهذه أيضاً لا يحدد منها شيئاً.

والمبادئ الأخلاقية التى جاء بها الدين يجب أن تكون مُلزمة.[٤] ولكنه سيعود ويُنكر ذلك!

وقد عرض لموضوع القيم الأخلاقية فى كتاب "قصة عقل" فقال: "لو أمسكنا بالقيم الموضوعة لنا، تعرضنا لخطر الجمود، ولو سبحنا أحراراً مع تغيرات الزمن وتغيراته تعرضنا لانحلال الشخصية. وغاية ما أستطيع أن أقوله فى هذا الصدد هو أن

---

(١) حصاد السنين؛ ص ١٣، ١٤٦ .
(٢) عربى بين ثقافتين؛ ص ٣٧ .
(٣) نفسه؛ ص ٣٩ .
(٤) نفسه؛ ص ٢٢٢ .

قيمنا الأخلاقية الموروثة فيها من السعة ما يمكننا من التصرف فى إطارها بدرجة من الحرية تكفى للحركة مع سرعة الإيقاع فى عصرنا." (١)

فالتمسك بالقيم الإسلامية، كالعدل والصدق والوفاء بالعهد و الرحمة وغيرها من القيم الأخلاقية، يعرضنا للجمود. وهو لا يذكر قيمة واحدة كمثال لما يريد قوله، ويقف عند حدود التعميمات. ولو أنه فعل لظهر له الخطأ الجسيم فيما يقول. وهو لا يحدد "تيار الزمن وتغيراته"؛ غير أننا نعلم أنه يقصد الفكر الأوربى. وهذا لا يفيد فى شىء لأن الفكر الأوروبى مذاهب عديدة و توجهات متعارضة. وفى مجال القيم الأخلاقية بالذات هناك مذاهب عديدة محترمة لفلاسفة كبار تؤكد ثبات القيم الأخلاقية، وتنفى النسبية، كما أن فيها مذاهب نسبية جذرية. ويعتبر نيكولاى هارتمن أكبر فيلسوف أخلاقى معاصر معارض للنسبية، ومؤكد لثبات القيم الأخلاقية التى لا تقل فى ثباتها عنده عن المبادئ الرياضية والمنطقية. (٢) وهكذا يتبين لنا أن آراء الدكتور زكى نجيب محمود فى ثبات القيم لا تفيدنا فى شىء، فهى لا تحدد لنا بماذا نتمسك أو ماذا ندع!

وقد تحدث عن "العبارات و الجمل الأخلاقية" التى ترد فيها ألفاظ مثل "خير"، و "واجب". وهذه العبارات عنده فارغة من المعنى. ولم ينتبه إلى أن هذه العبارات كثيرة الورود فى القرآن الكريم؛ وأنه بهذا الادعاء يقتحم منطقة مقدسة دون سند علمى!

يقول الدكتور زكى نجيب محمود: "إن الجمل الأخلاقية ليست بذات المعنى لأنها لا تشير إلى عمل يمكن أداؤه للتحقق من صدق معناها المزعوم."(٣)

فإذا أخذنا قول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ كمثال لجملة أخلاقية وجدناه يشير إلى عمل محدد يمكن أداؤه، ويجب أداؤه. والبشرية كلها تعيش على هذه القيمة الأخلاقية – أى الوفاء بالعهد – وعلى غيرها. فعلاقات الأفراد

---

(١) قصة عقل؛ ص ٢٤٢ .

(٢) مبادئ ميتافيزقا المعرفة؛ (بالفرنسية)؛ جـ ١ ص ٢٨٩ .

(٣) انظر كتابه: الموقف من الميتافيزيقا؛ ص ١١٢ .

و الدول تستند إلى قيم العدل و الصدق و الوفاء بالوعد وغيرها من القيم الأخلاقية الثابتة المطلقة الخالدة التى لا يمكن تطويرها أو تحديثها بأى حال.(١)

فأين يكون المعنى إن لم يكن فى الجمل الأخلاقية ؟ وكيف ينكر إنسان أنها أوامر صريحة بأداء أعمال محددة؟

ويفرق الدكتور زكى نجيب محمود بين "الصورة" و "الحشو" فى القيم الأخلاقية. وهى تفرقة تثير العجب من كاتب مخضرم وأستاذ محقّق.

فهو يقول إن: "القيم الأخلاقية يجب أن تبقى اليوم على حالها بالأمس، وهى أن تكون مطلقة لا نسبية، إلا أن ذلك الإطلاق يتعلق بالصورة لا بحشوها. فالشجاعة اليوم قد لا تكون شجاعة المبارزة بالسيف بقدر ما تكون شجاعة فى اقتحام الصعاب فى سبيل الحق."(٢)

والشجاعة كما يعرفها علماء الأخلاق هى الثبات فى مواجهة الخطر من أجل الدفاع عن قيمة سامية. وقد تجسدت فى الماضى فى المبارزة وفى مواجهة المعتدين على الحق؛ وهى اليوم لم تتغير: إنها كما كانت: مواجهة الخطر فى الحرب و السلم دفاعاً عن الدين أو الوطن أو الأهل والعرض. وتبايُن مصادر الخطر، وتبايُن القيم السامية التى يخاطر البشر بأنفسهم فى سبيلها، لا يغير من قيمة الشجاعة شيئاً. ومن المحزن بحق أن يتورط أستاذ كبير فى مثل هذه المزاعم الباطلة.

ومن أجل بلوغ غايته فى نبذ الأخلاق الإسلامية وبيان أنها لم تعد تلائم عصرنا يعرض لحق الضيافة الذى أوجبه النبى ﷺ للضيف. فهو يقول: إن السفر فى الصحراء فى الماضى اقتضى أن يكون: "كلٌّ لكلٍّ فندقاً ومطعماً؛ وتغيرت ظروف الحياة بحيث أصبح مسافر الصحراء كما فى الأرض المزروعة. . . وإذا كان الأمر كذلك، فلم يعد أمامنا محيص عن تغيير الفرض الأول بفرض جديد تنبثق منه أحكام الناس على سلوك الناس من فضيلة ورذيلة."(٣)

---

(١) راجع الموضوع بالتفصيل فى كتابى : الفضائل الخلقية فى الإسلام؛ المبحث الرابع و الخامس .
(٢) حصاد السنين؛ ص ٣٩٨ .
(٣) تجديد الفكر العربى؛ ص ١٩٩ .

والحق أن إكرام الضيف تطبيق لمبدأ أخلاقى أوسع هو: سدُّ خَلَّة المحتاج أينما كان، فى الصحراء أو فى المدن أو البحر. وإذا كان المسافرون اليوم لم يعودوا يحتاجون إلى الضيافة، فإنهم قد يحتاجون إلى النجدة عند وقوع الحوادث المرورية وتعطل السيارات، وسقوط الطائرات؛ وقد يحتاج الجنود إلى الضيافة، وأكثر من الضيافة، حين يقومون بارتياد مواقع العدو. وفى حالات الحرب، والهجرات الجماعية للمدنيين – وقد جربناها مراراً فى عالمنا الإسلامى – وكذلك فى حالات انهيار المساكن، وحالات الفيضان، استضاف المسلمون إخوانهم شهوراً عديدة، حتى عادوا إلى ديارهم.

فظاهرة احتياج الناس بعضهم إلى بعض ظاهرة بشرية، تتخذ صوراً عديدة، ولها أسباب متباينة وتقع فى أماكن مختلفة. ومواجهتها واجبة على كل مسلم. وهذا هو التكافل الاجتماعى و السلوك الأخلاقى –أى العطاء بلا مقابل – فى صيغ متباينة. فإذا اختفت صيغة–كحاجة المسافرين فى الصحراء إلى الضيافة – لم يكن ذلك مسوغاً للمطالبة بتغيير مبدأ التكافل الاجتماعى ونجْدة المسلم لأخيه المسلم فى أوقات الحاجة. لكن الدكتور زكى نجيب محمود فى ولعه الشديد بإبطال مبادئ الأخلاق الإسلامية وإظهار عدم الحاجة إليها، لم يشعر بالحاجة إلى تأمل القضية فى أصولها وامتداداتها. إنه "التطور" الذى يريده أن يصْدُق على كل شىء، ليحل الجديد محل القديم – والجديد هو الفكر الأوربى الوضعى، و القديم هو الوحى الإلهى فى الكتاب العزيز و السنة المطهرة. وأوربا اليوم تشكو مُر الشكوى من الأنانية الفظة و الفردانية المفرطة التى تترجم عن نفسها فى شكل صنوف من الجريمة المنظمة وغير المنظمة. فكيف يجوز لأستاذ كبير للفلسفة أن يطالب بنبذ مبدأ التكافل الاجتماعى و النجدة الإسلامية وسَدّ خَلّة المحتاجين لأن المسافر فى الصحراء اليوم لم يعد بحاجة إلى الضيافة التى قررتها السنة المشرفة ؟

وإيمانه بالفكر الأوربى الحديث ليس موضع شك، فقد أكده غير مرة، فى مواضع عديدة من مؤلفاته. وفى مجال القيم الأخلاقية اتخذ الدكتور زكى نجيب محمود معيار الخُلُقية البراجماتى العملى السائد فى الفلسفة الأمريكية و الأوربية. فهو يقرر "أن الفكر الفلسفى المعاصر (يعنى لغربى) كشف عن أن مقياس العمل

الصحيح، أو الفكر السديد، هو مقدار ما ينتجه ذلك العمل أو الفكر." (١) فلا قيمة للنية، أو طاعة الله؛ بل المعيار هو المنفعة العملية الدنيوية. والمنفعة تظهر بعد العمل؛ فكان المستقبل، لا الماضي، هو مقياس صحة العمل أو سداد الفكرة: "وليس قول قاله سلف فى لحظة من زمن مضى." (٢)

فلا يجوز عنده أن نقول: قال الله تعالى، أو قال رسول الله ﷺ، للحكم على مدى أخلاقية العمل، بل ننظر فى النتائج فقط. وكذلك العمل السلبى أو الرذيلة لا يُحكم فى شأنها بقول "السلف"، ولذلك غضب الرجل غَضْبةً شديدة حين علم أن بعض طلاب كلية الطب حرصوا على معرفة حكم الإسلام فى رؤية الطبيب للعورة.(٣)

ومن جهة أخرى، إذا درسنا القيم الأخلاقية عنده فسوف نرى أنها نسبية متطورة متغيرة. وأى وصف لها بالثبات فهو نسبى بمعنى التطور البطىء. وعلى هذا الأساس يقرر أن القيم ليست عامة ولا مُلزمة لكل إنسان سوى من يؤمن بها. (٤) (وهذا زعم باطل كل البُطلان. ومن ذا الذى يمكن أن يعيش بين الناس دون التزام الصدق والعدل و الوفاء بالعهد؟!) ثم يضرب مثلاً – وهذا يندر أن تجده فى كتبه – للقيمة الخلقية، ولكنه للأسف يخطئ ويخلط بين القيم و الأذواق الفنية !فهو يقرر أن جميع الأحكام القيمية قابلة للاختلاف: "دون أن يكون ذلك دالاً على صحة الرأى عند أحدهم وخطئه عند آخر، إذ لا تناقض بين أن يعجب معظم الناس بغناء أم كلثوم – مثلاً – و أن تجد قلة من الناس لا يشاركونهم هذا الإعجاب." وأنا أقول إن الخلاف هنا فى التذوق لا فى قيمة خُلقية. والمثال الصحيح أن يقال إن البعض يعتبر العدل رذيلة أو جريمة و أن الظلم فضيلة! أو يقال إن الوفاء بالعهد خطأ ونقص سلوكى معيب، وأن نقضه خَصْلة شريفة ! فالرجل كتب عن القيم الخلقية دون أن يُعرّفها؛ ولذلك خلط بين التذوق الفنى الذى لا جدال فى اختلاف الناس فيه وبين القيم الخلقية الثابتة المطلقة التى لا خلاف فيها بحال.

---

(١) رؤية إسلامية؛ ص ١٣٨.
(٢) نفسه؛ ص ١٣٩.
(٣) نفسه؛ ص ٢١٥.
(٤) حصاد السنين؛ ص ٣٢٣.

وهذا مثال آخر للخلط بين قيمة ثابتة مطلقة – هى العدالة – وبين وسائل تحقيقها. والغاية من وراء هذا الخلط هو إثبات النسبية الجذرية الشاملة. يقول الدكتور زكى نجيب محمود إن مضمون العدالة يتغير: "فقد تعنى العدالة – فى عصر فكرى معين – أن يقتص المظلوم من ظالمه متى استطاع ذلك بشخصه، ثم يتغير العصر فتصبح العدالة أن يقف بين الطرفين قاض محايد؛ وهكذا فى سائر المعانى." (١)

والحق أن مضمون العدالة ثابت مطلق. إنها تعنى حق كل إنسان فى أن ينال ثمار عمله. وإذا اغتصب أحد ثمار عمل غيره، فذلك هو الظلم. أما وسيلة تحقيق العدل ومنع الظلم فقد تكون عن طريق القضاء كما عرفته أمم الأرض جميعاً، وقد تكون عن طريق سلطة أبوية أو عشائرية أو روحية؛ وقد يضطر صاحب الحق إلى أخذ حقه – أو ما يعتقد أنه حقه – بالقوة. فتختلف طرق تحقيق العدل، لكن يظل العدل هو العدل والظلم هو الظلم، قيماً ثابتة، وبدهيات مطلقة مثل المبادئ المنطقية والبدهيات الرياضية. وهكذا يظهر للعيان الخطأ الكبير للأستاذ الكبير!(٢) وفضلاً عن هذا الخطأ الكبير يضيف الدكتور زكى نجيب محمود خطأ أكبر حين يزعم أن كلامه عن العدالة يصدق على سائر المعانى، أى أن كل القيم التشريعية والأخلاقية متغيرة متطورة، نسبية، كالعدالة!

العدالة عنده نسبية متطورة؛ فإذا كانت العدالة بمثابة الجوهر لكل تشريع، كان معنى ذلك نسبية كل تشريع. وكان الإسلاميون قد طالبوا بالعدالة الإسلامية وتطبيق الشريعة والإسلام كاملاً غير منقوص ولا مبتور، فرد عليهم قائلاً إن: "بعضنا يريد أن يعيد الماضى ليكون هو الحاضر أيضاً، وكأنه لم يكن هناك امتداد زمنى بيننا وبينه."(٣) فالعدالة الإسلامية لم تعد صالحة للتطبيق بعد مرور أربعة عشر قرناً على ظهور الإسلام. وبصفة عامة، الإسلام عنده ماض، والحاضر أفضل منه، ويجب أن يحل محله. فلا ثبات لشىء عنده إلا الله تعالى: "لأن الثبات المطلق لا يتحقق إلا لمن

---

(١) تجديد الفكر العربى؛ ص ١٧٧ .

(٢) راجع كتابنا: الفضائل الخلقية فى الإسلام؛ المبحث الرابع؛ ص ١١٢ .

(٣) حصاد السنين؛ ص ٢٧٢ .

هو فوق الزمان وتقلباته وقيوده - سبحانه وتعالى - [١]، لكنه فى مكان آخر يعترف بأن الحقائق الرياضية مطلقة ![٢]

- ومن المؤسف أنه يرفض أشياء لا يعرفها، وبالجملة !ولو أنه حاول معرفة معنى العدالة الإسلامية لما رفضها. إنها تعنى: أن ينال كل إنسان ثمرة جهده. فهل يسع أحد أن يرفض هذه البدهية التشريعية ؟[٣]

هل يمكن قبول صيغة مُضادة أو مُعدلة لها كأن يُقال مثلاً إن: "لكل إنسان أن ينال بعض ثمرة جهده فقط؟ فمن ذا الذى ينال البعض الآخر؟ ومن ذا الذى يُحدد نسبة ما يأخذ ؟ لقد حاولت الشيوعية ذلك، فماذا كان مصيرها؟!

ولقد اعترف هو نفسه بأن: "الإسلام مجموعة من القيم التى لا أحسب عاقلاً على وجه الأرض يرفض شيئًا منها من حيث هى مُثل عُليا."[٤]

لكنه للأسف كثيراً ما يُناقض نفسه، وقد رفض العدالة الإسلامية التى هى القيمة التشريعية الأساسية.

وفى مجال الحريات يزعم الدكتور زكى أن تطوراً عظيمًا قد طرأ على حياة المسلمين اليوم، فصاروا يعزلون الحكام ويختارون غيرهم وكانوا عاجزين عن ذلك. ولا أدرى كيف يجحد ما حدث فى عهد عمر بن الخطاب ﷺ حين كان يعزل الحكام والولاه تبعًا لآراء الرعيّة فيهم. وقد عزل "عمار بن ياسر" الصحابى الجليل ﷺ عن الكوفة؛ وذلك بسبب عدم رضا الرعية عنه."[٥] وعزل سعد بن أبى وقاص - قائد القادسية المظفر - للسبب نفسه.[٦] فحيثما تُعلن الرعية عن عدم رضاها، يكون العزل!

- والمفكرون المسلمون - فى رأيه - لم يعالجوا قضية الحرية السياسية والاقتصادية، بل عالجوها بمعنى ميتافيزيقى، فسألوا: هل الإنسان مُخيّر أم مُسيّر؟

---

(١) حصاد السنين؛ ص ٣٤٤ .
(٢) نفسه؛ ص ١٧٩ .
(٣) راجع تفاصيل الموضوع فى كتابى "خلق القرآن"؛ ص ١٥-٢٣ .
(٤) تجديد الفكر العربى ؛ ص ٦٨ .
(٥) تاريخ الطبرى ؛ جـ٤ ص ١٦٣- ١٦٤ .
(٦) نفسه؛ ص ٢٤٤ .

وتكلموا عن حرية الأحرار فى مقابل الرق: "وهى لا تمس علاقة الناس بالحكومة، هل هم أحرار فى إقامتها وفى عزلها، ولا تمس صور التبادل التجارى والاقتصادى، بل ليست هى بذات شأن فى علاقة الوالد بولده، ولا الزوج بزوجه."(١) ثم يقول: "فإذا وجدنا كلاماً عن الإنسان الحر، كان ذلك بالقياس إلى الرقيق، فهو حر بمعنى أنه غير مملوك لأحد؛ وأما حرية هذا الحر ما مداها فى أوضاع الحياة الفكرية والعملية، فلا أظن أنها ظفرت بالنظر."(٢)

وهذا النقد لا أساس له إلا الجهل بالإسلام والجسارة فى نقده دون تمحيص. فالإسلام أكّد حرية المسلمين السياسية والاجتماعية والاقتصادية بتوكيده لمبادئ الرضا والتراضى وانتفاء القسْر، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ورفض التسعير، و"العفو" –أى المجال الذى لا يخضع لأحكام النصوص الدينية..

– ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ**﴾ (النساء: ٢٩) وعلى أساس هذه الآية شُيدت الحريات الاقتصادية، وَحُرّم الغَصْب والإجْبار فى المعاملات المالية والتجارية. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ينطوى على حرية النقد الاجتماعى والسياسى، ويجعل حرية النقد واجباً فى الممارسة. وقد رفض النبى ﷺ التسعير وقال: "إن الله هو المُسعّر."(٣) وقوله تعالى: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ معناه أنه لا إكراه فى أى شىء، لأن "الدين" يشمل العقائد والعبادات والمعاملات والسياسة والاقتصاد والاجتماع. فلا إكراه فى أى مجال من مجالات الحياة. فهذا هو المنهج الإسلامى، وهذه هى المصطلحات الإسلامية للتعبير عن الحريات. وقد نظر المفسرون والفقهاء فى "الرضا والتراضى"؛ وفى بطلان كل أمر يتم قسراً، وفى حرية التصرف للمالكين فى أملاكهم. وهناك آلاف الصفحات التى تتضمن بحوث العلماء المسلمين عبر العصور. ولكن ما ذنبنا نحن المسلمين إذا أراد كاتب أن يتقوّل على ديننا بالباطل دون أن يكلف نفسه عناء البحث والعلم؟!

---

(١) تجديد الفكر العربى؛ ص ١٨٦.

(٢) نفسه؛ ص ١٨٨.

(٣) راجع الموضوع بالتفصيل فى كتابى: موقف الإسلام من الدنيا.

– وبعدُ فإن الدكتور زكى نجيب محمود آمن بالنسبية الجذرية التى تزعم أن كل شىء لابد أن يتغير مع الزمان والمكان؛ وهذه النظرية هى الأساس الفلسفى لفكرة التطور الشامل لكل شىء، النّافى لكل الثوابت :فى الدين والفكر والعلم والقيم والشرائع.

– لكننا نقابل تعبيرات عديدة فى كتبه تقول عكس هذا الكلام وعكس هذا الإيمان، بحيث يمكن أن يلتقط الناقد بعضها، ويرصّها جنبًا إلى جنب، لينتهى إلى القول إنه من أنصار الثبات وإنه ضد التطور والتقدم والحداثة والتجديد [١] ولكن إذا تذكرنا قوله إن الثابت هو الذى يتغير ببطء؛ وإن كل شىء متغير إلا الله تعالى، أدركنا أنه يستحيل أن يُعتبر من المعترفين بوجود ثوابت فى أى مجال.

وقد تأثر جيل من أساتذة الجامعات بكتابات زكى نجيب محمود وخالد محمد خالد، والسوفسطائية القُدماء ونظرية "دارون" وفلسفة "نيتشه"، وتُرجم كتاب "أصل الأنواع" لدارون إلى العربية.[٢]

وأُلفت كتب عن "نيتشه".[٣] وقراءة كتاب واحد لـ "نيتشه" تغنى عن كل ما كتبه الكُتاب العرب عنه. فليس لدى التلاميذ شىء يُضاف إلى ما كتبه الأساتذة، ولا لدى الأساتذة العرب – فى الحقيقة – شىء أكثر مما قاله "نيتشه" ونُقاده. وهذه الحقيقة المرة يعترف بها الجميع، وعلى رأسهم زكى نجيب محمود نفسه.

* * *

(١) انظر مثلا: رؤية إسلامية ص ٣٣، ٣٤، ٤١، ٧٥، ٣١٨، ٣١٩.

(٢) ترجمه إسماعيل مظهر، لكنه مات قبل إتمامه، فترجم الفصلين الرابع عشر والخامس عشر الدكتور محمد يوسف حسن.

(٣) كتب عبد الرحمن بدوى "نيتشه"؛ نشرته مكتبة النهضة سنة١٩٣٩؛ وكتب عنه فؤاد زكريا كتاباً نشرته دار المعارف.

موقفه من اللغة العربية

لقد وجه الدكتور زكى نجيب محمود انتقادات مريرة إلى المؤلفين العرب الذين ألّفوا كتب التراث وإلى اللغة العربية ذاتها. وبعد فترة من الزمن قال كلامًا آخر يعلن فيه تراجعه عن تلك الانتقادات، لكنه لم يحدد ما تراجع عنه؛ ولذلك ظلت مؤلفاته التى تحمل تلك الانتقادات إلى القراء العرب تمارس تأثيرها السلبى؛ حيث تتوالى طبعاتها الواحدة تلو الأخرى.

ونبدأ بنقده، أو لنقُل رفضه، للغة العربية. فهو يرى أنها: "كما نراها فى التراث الأدبى، وكما لا تزال عند كثيرين ممن يظنون أنهم يكتبون أدبًا، توشك ألاّ تنتمى إلى دنيا الناس، فلا تكاد ترى علاقة بينها وبين الحياة العملية. ولذلك لم يجد المتكلمون باللغة العربية مفرًّا لهم من أن يخلقوا - إلى جانب الفُصحى- لغات عامية يباشرون بها شؤون حياتهم اليومية!" لأن الفصحى فى نظره: "أداة عُروج إلى السماء، لا وسيلة اتصال بالواقع". وقد سطر هذه المزاعم فى كتابه: "تجديد الفكر العربى" الذى يُعد من مؤلفات طور النضج فى حياته الفكرية.(١)

- ثم وَجّه سهام نقده العنيف إلى الثقافة العربية فقال إن: "الثقافة العربية - فى كثير من الحالات - لم يكن يعنيها أن تكون للصيغة الكلامية دلالة فى دنيا الطبيعة وعالم الكائنات. إن الصيغ اللغوية إنما تفعل فعلها "كله" ما دامت حسنة التركيب جميلة الجرْس، ولا على صاحبها ولا على قارئها بعد ذلك أن يهتدى بها فى تجارة أو صناعة أو قتال، أو فى شأن من شئون العَيْش."(٢)

وعلى هذا رأى أن ثقافتنا العربية الإسلامية: "خَليقةٌ بأن يُقذف بها فى النار!" وحين خفف هذا الحُكم قال: "إنها مادة للتسلية فى ساعات الفراغ!"(٣)

---

(١) انظر كتابه المذكور ط ٥ . ص ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٤١.

(٢) تجديد الفكر العربى ؛ ص٢٣٣ .

(٣) نفسه؛ ص ٢٠٥، ٢٠٦ .

وكلامه فى العبارات الأولى التى اقتبستها يحتمل البراءة لبعض كتابنا من اتهاماته؛ لكن العبارات الأخرى تعمم الحكم بانقطاع صلة العربية بشئون الحياة. وهو يجعل الثقافة العربية الجانى على اللغة، لأنها لا تريد من اللغة سوى جمال الجرْس!

– وفى جسارة الموقن بصحة اتهاماته يقول لقارئه: "إن شئْتَ فاخْترْ لنفسك أى كتاب شئت من تراثنا الأدبى، واقرأ مقدمة المؤلف، والأرجح جداً أن تجد نفسك فى أُحْبُولة من ألفاظ وتراكيب، خيوطها سحرية، تصرفك عما يُراد بها من معنى، لتعكف على النغم والجرْس". ثم يضيف قوله إن ذلك: "يتفق ومزاج من لم يُرد أن يفعل شيئاً، فهو فى فراغ يملأه بالزخارف."(١)

– وهذا هو الحكم السابق نفسه مع حكم شنيع آخر على علمائنا ومفكرينا وأدبائنا الذين ورثنا عنهم تراثنا الإسلامى العظيم.

– وقد نصح قراءه بالرجوع إلى ذلك التراث ليتأكدوا من صدق اتهاماته. وسوف نأخذ بنصيحته ونرجع إلى عدد من عيون التراث، لنرى إن كان الرجل محقًّا أو مبطلا.

ولقد كانت النتيجة مفزعة، ومفرحة، فى وقت واحد: مفزعة لأنها أثبتت لى أن الباطل يجسر – فى حياتنا الراهنة – على تحدى الحق، وعلى أن يطبع بهتانه فى صحائف كثيرة يسميها زوراً: "تجديد الفكر العربى". وأنا على يقين من أن أى قارئ يُجرى تجربتى سيجد النتيجة نفسها فى انتظاره.

– لقد قرأت مقدمات الكتب التالية:

* تاريخ الطبرى.
* الرعاية لحقوق الله، للمحاسبى.
* الأم للشافعى.
* بداية المجتهد لابن رشد.
* المستصفى للغزالى.

---

(١) تجديد الفكر العربى: ص٢١٧، ٢١٨.

* دَرْءُ تعارض العقل والنقل، لابن تيمية.

* الملل والنحل، للشهرستانى.

* الموافقات، للشاطبى.

* المحلى، لابن حزم.

* والجامع لأحكام القرآن، للقرطبى.

– وقد وجدت مؤلفيها أهل جِدٍّ وعمل وتطبيق، لا أهل زخرفة، ومماحكة، ونظريات فارغة، ولم أجد من بينهم واحداً تَصْدُق عليه أوصاف الدكتور زكى نجيب محمود. وهم مجمعون على أن العلم الجدير باسم العلم هو الذى يسعى إلى تسديد العمل.

– وفى تلك البيئة الثقافية الإسلامية العملية القديمة، عُرِف المنهج التجريبى الذى تلقَّفه "روجر بيكون"، العالم البريطانى الشهير (١٢١٤–١٢٩٤م) وطوره ليكون أساس النهضة الأوربية الحديثة. وكان "بيكون" يعرف العربية وكانت له صلاته بالعرب فى الأندلس.(١)

– فماذا يستحق ذلك الذى يجرؤ على وَصْم شيوخنا وعلمائنا بتلك الأوصاف الشنيعة زوراً وبهتاناً؟ أسأل هذا السؤال وأدع الجواب للقارئ.

– وأحسب أن معظم المثقفين يستطيعون أن يكتشفوا زيف انتقاداته للعربية الفصحى، لأنهم يتعلمون بها، ويكتبون بها، وقد دُونت العلوم الحديثة بها: من فيزياء وكيمياء وطب وهندسة. ولا ينفى هذه الحقيقة أن بعض الجامعات تدرِّس الطب بالإنجليزية، لأن جامعات أخرى تدرِّسه بالعربية. وهناك جهود حثيثة تُبذل لتعريب المصطلحات الأجنبية. وفى مجالات الفكر والأدب، عَبَّرت اللغة العربية عن أفكار المفكرين، ومنهم الدكتور زكى نجيب محمود، وعن خيالات الشعراء، وعواطف الأدباء. وكتبت الدساتير والقوانين بالعربية، وصِيغت بها المعاهدات والمواثيق الدولية، وظلت العامية حبيسة الأسواق، وبعض مسرحيات "الفارس" البذىء! وإعلامنا العربى

---

(١) راجع الموسوعة العربية الميسرة ؛ دار نهضة لبنان ، بيروت ١٤٠١هـ–١٩٨١م .

الجاد بأخباره وتحقيقاته، ومقالاته، يجد الفصحى أداته القوية الثرية المعبرة، ونادراً ما يلجأ إلى العامية، لا لنقص فى الفصحى، ولكن لعادة المتكلم أو جهله.

فهل هذه المجالات كلها "خارج دنيا الناس"؟ وماذا تكون دنيا الناس عند الأستاذ الناقد؟ ولماذا لم يؤلف مؤلفاته بالعامية؟ ولماذا ترجم محاورات أفلاطون بالفصحى؟!

- وقد عبرت الفصحى عن معانى الفقه الإسلامى- عبادات ومعاملات، بأدق تعبير وأوفى بيان، فى المؤلفات التراثية والحديثة. وهذا الفقه يتناول حياة المسلمين: فى البيع والشراء والإيجار، وكل المعاملات التجارية، والأحوال الشخصية، والدماء، والقتال، والصلح والعهود، والعلاقات الدولية. فهل هذا كله "خارج دنيا الناس"؟

الجواب عن هذه التساؤلات معروف، وهو يظهر بجلاء مدى البُطلان فيما قاله ذلك الأستاذ.

ومن المؤسف أن يمتد نقده الزائف ليمسّ الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. فقد التقط كلمة عظيمة لذلك الخليفة العظيم، ثم فسرها على هواه، لتدعيم انتقاداته السابقة للفصحى وللكاتبين بها قديمًا وحديثًا. قال عمر: "إن الرجل ليكلّمنى فى الحاجة يستوجبها، فَيَلْحَنُ، فَأَرُدُهُ عنها، وكأنى أقْضِمُ حَبَّ الرمان الحامض، لِبُغْضى استماع اللحن. ويكلمنى آخر فى الحاجة لا يستوجبها، فيُعْرِبُ، فأجيبهُ إليها، التذاذًا بما أسمع من كلامه."(١)

- فهل هذه الكلمة تشهد على أن العربية الفصحى لا تبتغى غير جمال الجرس؟ وهل تؤيد رأى الناقد القائل إن تراثنا العربى يستحق إضرام النار فيه؟

إن الخليفة العظيم لم يذكر جمال الجرس ولا طلبه، وإنما أراد أن يحث محدثيه على اجتناب اللحن، وعلى التزام الإعراب الصحيح. أراد "عمر" أن يحرص كُتابه وعماله والمسلمين عامة على تعلم العربية الفصحى. ولذلك أعلن تقززه من اللحن، واحترامه للإعراب الذى هو: "البيان دون لبْس أو مواربة." والفصاحة لا تعنى جمال الجرس، بل صحة الكلام ووضوحه."(٢)

---

(١) تجديد الفكر العربى؛ ص ٢٣٢.

(٢) راجع قواميس اللغة، مادتى "ع ر ب" و "ف ص ح".

– وعلى هذا نرى أن نقد الناقد مجرد تُرهات جسورة هن بنات النزق الذى لا يعرف قَدْرَ المتكلم العظيم، ولا معنى كلامه الدقيق ولا غايته النبيلة.

ثم مضى زمن ليس بالطويل، أعلن بعده الدكتور زكى نجيب محمود تراجعه عن افتراءاته السابقة على التراث والثقافة العربية، والفصحى والكاتبين بها قديمًا!!

– فهو يقول: "اقرأ ما شئت من نصوص التراث، وفى أى ميدان تختاره، تجدك أمام إنسان يجدّ ولا يهزل، يسمو بقارئه إلى القمة، ولا يهبط من قمته إلى السفوح ليرضى عنه قراؤه."(١)

– وفى تفسير مواقفه السابقة الرافضة للتراث العربى الإسلامى يقول: "وربما كان دافعي الخَبِيء إليها هو إلمامى بشيء من ثقافة أوربا وأمريكا، **وجهلى بالتراث العربى جهلاً كاد أن يكون تامًّا ، والناس – كما قيل بحق – أعداء ما جهلوا.**"(٢)

إن المرء ليقف مشدوهًا أمام هذا الاعتراف!

– إنه يثير إعجابنا بشجاعته الأدبية، لكنه فى الوقت نفسه يثير سخطنا الشديد. فكيف استجاز ذلك الأستاذ الكبير، رائد العلمانية فى مصر فى النصف الثانى من القرن العشرين، لنفسه، أن يُصدر تلك الأحكام الزائفة على تراث أمته وهو جاهل به؟! وأين يكون الاستهتار والتهور الفكرى إن لم يكن فيما فعله الدكتور زكى نجيب محمود؟!

– وقد كان عليه أن يُفصّل القول فى المسائل الكبرى التى تناولها فى نقده الجهول؛ وكان عليه إن يصحح أخطاءه وأن يعتذر عن سوء فهمه لكلمة الخليفة الراشد الخامس ﷺ، لكنه لم يفعل. ولا تزال كتبه تُطبع، وتنشر جهالاته إلى اليوم!

وبعد عقود من السنين دار فيها الجدل حول اللغة العربية بين التراثيين والحداثيين، لا يزال مستقبل اللغة العربية غامضًا. فيقول الدكتور عاطف نصار – رئيس جمعية لسان العرب – إن: "اللغة العربية تُضرب فى كل مكان، كتابةً وقراءةً واستماعًا وتعليمًا وتعريبًا "الأمر الذى "يحتاج إلى تعبئة عامة على المستوى القومى،

---

(١) انظر كتابه: عربى بين ثقافتين ص ١٤٨.

(٢) تجديد الفكر العربى، ص ١٣.

يُدعى إليها كل أطراف الفعل، وهى الأجهزة الحكومية، وشخصيات المال والأعمال، ورموز الفكر، وخبرات تقنية المعلومات، وخبراء صُنع القرار، وأساطين الصحافة والإعلام والإعلان، والأمن القومى العلمى التعليمى" فى: "مؤتمر تطوعى لا يخضع لسيطرة حكومية أو فردية، وإنما يديره مجلس حكماء قادر على صياغة رؤى التطور والتخطيط لها وتنفيذ مشروعاتها."

– وفى اعتقادى أن مشكلة اللغة جزء من مشكلة الثقافة. فإذا كانت الهيمنة الآن للثقافة الغربية، كانت اللغات الغربية هى المرغوبة، لا لذاتها، ولكن للمصالح الاجتماعية والاقتصادية التى تأتى ثمرةً لها. وإذا استطعنا أن نتحرر من الهيمنة الغربية ونسترد استقلالنا الثقافى واعتزازنا بثقافتنا، فإن اللغة العربية سوف تسترد الأرض التى سُلبتها فى عُقر دارها. وإلى أن يتم ذلك بعون الله، يجب تأخير دراسة اللغات الأجنبية إلى المرحلة الإعدادية. وفى مجال الإعلام يجب التزام الفصحى الميسرة، وقد تم هذا الالتزام فى بعض برامج الأطفال فنطق كثير منهم بالفصحى فى أثناء اللعب! والتزم البعض بالفصحى فى وصف المباريات الرياضية، فانتشرت المفردات الفصحى بين المشاهدين والمعلقين.

ولا يجب أن نخدع أنفسنا فى رؤيتنا لمستقبل اللغة العربية، باعتبارها لغة القرآن الكريم الذى وعد الله تعالى بحفظه، ونخلد إلى النوم فى هدوء! إن علينا أن نكون أدوات فعالة لحفظ الله تعالى للغتنا العربية. ويجب أن نتذكر دائمًا أن حرْب الحداثيين ضد العربية هى حرب ضدها كَمَعْلَم لشخصيتنا الإسلامية، لا بوصفها أداة تعبير. وتاريخ تركيا العلمانية الحديث يشهد على صحة ذلك. وفى كل بلد عربى هناك أشباه للأتراك للكماليين، وإن كانوا منحدرين من أصلاب عرب أقحاح!

* * *